ورقة عمل

تـثـقـيـفٌ مُـجـدٍ
فـي وقـتٍ ضـائـع
ثلاثون عاماً من حياة "ورشة التحرير"

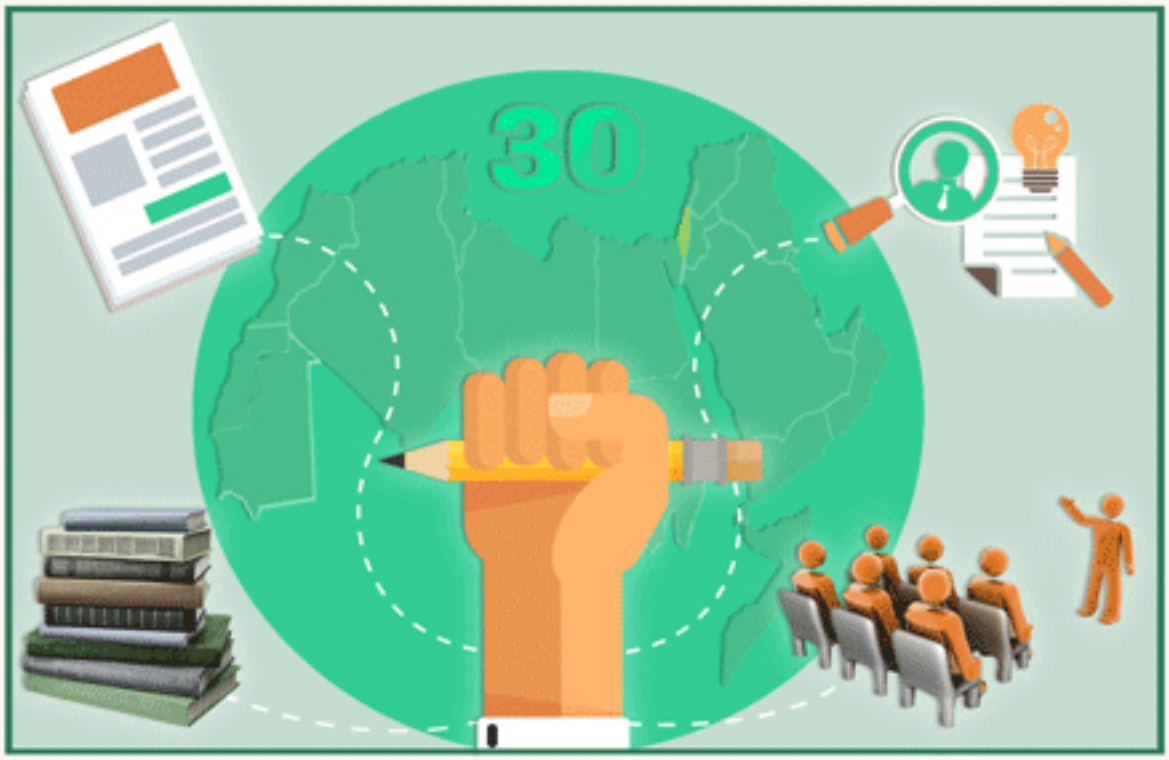

عبد القادر ياسين

أيار/ مايو 2023

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت

جميع إصدارات ومنشورات المركز تعبّر عن رأي كتابها
ولا تعبّر بالضرورة عن رأي مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات 1

إهداء 2

مقدمة 3

تمهيد: في البدء تبلورت الفكرة 5

أولاً: دورة فورشة في دمشق: 9

إلى المعالجة بالأعشاب..... 12

مواد الدراسة 14

التحوُّل إلى ورشة 15

الحساب الختامي..... 18

ثانياً: الورشة في القاهرة: 20

مسيرة الورشة في مصر 22

مرحلة الكتب المشتركة 24

عضوية بلا شروط..... 25

مواد الدراسة..... 26

المحصِّلة: ماذا بقي منها للتاريخ؟! 29

إهداء

إلى روح المبدعة فتحية العسال، التي دحرت أُمِّيَّتها،

بغير اعتماد على مدرسة أو مدرسين،

حتى غدت قاصَّة وروائية، ومؤلفة لمسلسلات ومسرحيات،

وتصدَّرت مؤسسات ثقافية، إلى أن بزَّت من سبقها في هذا المضمار.

تثقيفٌ مُجدٍ في وقتٍ ضائع

ثلاثون عاماً من حياة "ورشة التحرير"

عبد القادر ياسين[1]

مقدمة:

تحتضن صفحات هذه الورقة تجربة ثقافية فريدة، قامت على أكتاف متطوعين، دون ما حاجة إلى تمويل أجنبي.

هذه سيرة "ورشة التحرير"، التي استمرت في نشاطها التثقيفي، مفتوحة الذراعين، على مدى ثلاثة عقود متصلة، توزّعت ما بين العاصمة السورية، دمشق، والعاصمة المصرية، القاهرة؛ تدرَّب فيها نحو خمسمئة دارس، من الجنسَين ومختلف الأعمار والجنسيات؛ سورية، ومصرية، وفلسطينية، وسودانية، وليبية، ومن شتى مستويات التعليم والمدارس الفكرية – السياسية ومن خارج هذه المدارس.

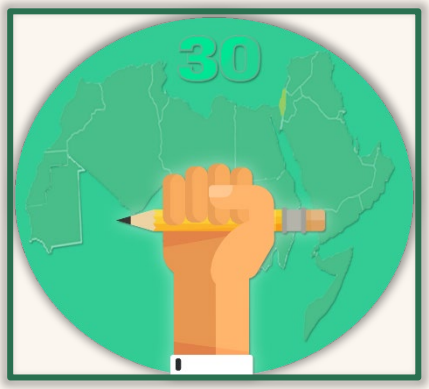

أتت هذه الورشة أُكُلها، وخرَّجت عدة مئات من الباحثين، والصحفيين. ما يمكننا معه القول بأننا أمام محاولة لفتح ثغرة في السد، الذي طوّقنا به الأعداء. فإلى أي حدٍّ نجحت المحاولة؟!

***

[1] ولد في مدينة يافا، بفلسطين، في 1937/9/30. وصلت عدد كتبه إلى ثلاثين كتاباً، معظمها في التاريخ الفلسطيني المعاصر؛ "كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام 1948"، الذي صدر في أيار/ مايو 1975، ومؤلفات حول التجارب السياسية التي شارك فيها، بالإضافة إلى ثلاثة كتب عن مصر، وكتاب عن السودان. عمل سكرتيراً لفصلية "الكاتب الفلسطيني"، الصادرة عن الأمانة العامة لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين في بيروت، خلال الفترة 1978–1980، ثم مديراً لتحرير شهرية "المصير الديمقراطي" البيروتية خلال الفترة 1980–1982. نظَّم ورشة تدرب فيها نحو 500 شاب، من مصر، وسورية، وفلسطين، حملت اسم "ورشة التحرير"، على مدى ثلاثين عاماً متصلة، في دمشق والقاهرة (آذار/ مارس 1990 – آذار/ مارس 2020).

توزَّعت هذه الورقة إلى ثلاثة فصول. وقد جاء الفصل التمهيدي: "كيف تبلورت الفكرة؟! "أولاً في ذهني، على مدى نحو عقدين، بعد أن تهيأ ذهني لمثل هذا التبلور، على مدى أربعة عقود متصلة.

في الفصل الأول، كانت "البداية في مخيم اليرموك"، حيث بدأت مسيرة الورشة، في شكل دورة صحفية وبحثية؛ وفي الدورة الثانية، اقترحت إحدى الدارسات أن تتحول الدورة إلى "ورشة"، وقد كان. وشتان بين الدورة والورشة.

تحمس الصديق العزيز فاروق وادي للورشة، بينما كان يشغل موقع مدير تحرير فصلية "صامد الاقتصادي"، في عمّان، التي انتظمت، منذ سنة 1992، في نشر الدراسات التي يعدّها الدارسون في الورشة؛ حتى أن الدارسين ظلّوا يغطون ما بين 80–90% من صفحات كل عدد، حتى العدد الأخير، الذي صدر من الفصلية المذكورة، أواخر سنة 2013.

لاحظ الصديق فاروق مدى إتقان ودقة الأبحاث التي يكتبها دارسو الورشة، وجاء رد الفعل الإيجابي للدارسين، من النشر أولاً، والمكافأة المجزية، بالليرة سورية، آنذاك (مئة دولار عن كل بحث يُنشر)، ثانياً. ورصد الفصل نفسه سيرة الورشة، على مدى نحو خمسة أعوام ونصف العام، استغرقتها "الورشة"، في مخيم اليرموك، بالعاصمة السورية، دمشق؛ حيث توقفت، في تشرين الأول/ أكتوبر 1995؛ سافرت، بعدها، عائداً إلى مصر، وهناك وافقت الداخلية على عودتي، بعد نفي دام نحو ثمانية عشر عاماً ونصف العام، بشكل متقطع.

تولى الفصل الثاني عرض سيرة "الورشة"، في القاهرة، منذ 1995/10/22، وما تزال.

بينما تساءلت "المحصِّلة": " ما الذي بقي منها للتاريخ؟!" عبر إجراء جردة لنشاط "الورشة"، في القطرين، تضمنت تقويماً سريعاً لهذا النشاط .

متمنياً أن تفي هذه الورقة الغرض.

القاهرة في 2023/3/1

المؤلف

تمهيد: في البدء تبلورت الفكرة:

داهمتني أوضاع، وأنا في العاشرة من عمري، تفحَّمت بقوة في صياغة مستقبلي. ذلك أن الجمعية العامة للأمم المتحدة United Nations General Assembly أصدرت قرارها الذي قضى بتقسيم فلسطين في 1947/11/29، ومنذ تلك اللحظة، حمل والدي، رحمه الله، كل أفراد أسرتنا، في عربة حنطور؛ لأن منزلنا في حي المنشية بيافا كان يقع على خط التماس مع تل أبيب، حاضرة الصهاينة آنذاك؛ وقد اشتعلت الاشتباكات المسلحة بينهم وبيننا.

منذ ذلك التاريخ، دأب والدي على شراء يومية "الدفاع" اليافاوية، وكان يستدعيني لأقرأها له، وأفسر له ما استعصى عليه فك رموزه. ووجدت نفسي أتعلّق بسماع نشرات الأخبار من المذياع، في "فندق الانشراح" الذي انتقلنا إليه، وسط يافا، علَّني أجد من الأخبار ما يُبشِّر بعودتنا إلى منزلنا، ولكن هيهات.

علقت بي هاتان العادتان؛ قراءة الصحيفة اليومية، والحرص على سماع نشرات الأخبار من المذياع، حتى بعد أن انتقلنا من يافا إلى بورسعيد، حيث أخوال والدي، وذلك في الأيام الأخيرة من كانون الثاني/ يناير 1948.

طبعاً، جاء انتقالنا هذا، حسب الأصول المرعية، بعد أن حصل والدي على تأشيرة دخول إلى مصر، من القنصلية المصرية في القدس.

ركبنا السيارة من يافا، إلى محطة سكة الحديد في مدينة اللد، ومن هناك ركبنا "قطار الشرق السريع" المار باللد في طريقه إلى القاهرة. عند القنطرة شرق، نزل أفراد الأسرة، وانتقلوا إلى القنطرة غرب، ومنها أخذنا القطار المتجه من القاهرة إلى بورسعيد؛ التي مكثنا فيها، نحو 15 شهراً، نفدت خلالها مدّخراتنا،

خصوصاً وأن محمود فهمي النقراشي باشا، رئيس الوزراء المصري، آنذاك، كان أصدر قراره الجائر؛ الذي قضى بعدم تشغيل الفلسطينيين، حتى بدون أجر!

لكن هذا كلّه لم يمنعني من المواظبة على قراءة يومية "المصري" الوفدية، والاستماع إلى نشرات أخبار المذياع؛ الأمر الذي رافقني، حين اضطرت الأسرة للانتقال إلى "معسكر القنطرة شرق"، وهو معسكر مهجور، كانت تستخدمه القوات البريطانية، وخُصِّص لحشر الفلسطينيين، الذين اختاروا مصر مستقراً لهم.

عبد الرزاق السنهوري باشا

مكثنا في هذا المعسكر نحو ثلاثة أشهر، زارنا، بعدها، عبد الرزاق السنهوري باشا، وزير المعارف، فخرجنا في مظاهرة، هتفنا: "بدنا غزة"!؛ وذلك بعد أن كانت مصر أول دولة تُوقِّع اتفاق هدنة مع "إسرائيل"، في رودس في شباط/ فبراير 1949. وبرّ السنهوري بوعده، إذ سرعان ما توالى وصول القطارات إلى باب المعسكر، وأخذت تنقل سكانه إلى محطة سكة دير البلح، في قطاع غزة؛ ومن هناك نقلتنا سيارات الجيش المصري إلى مخيم المغازي، القريب من المحطة المذكورة، ولم تمكث أسرتنا في هذا المخيم، سوى 18 يوماً، انتقلنا بعدها إلى مدينة غزة. وهناك، تسنّى لي العودة إلى الصحف المصرية والمذياع، وأذكر بأنني بكيت، يوم صدور قرار "مجلس قيادة الثورة" في مصر، الذي قضى بسحب رخصة يومية "المصري"، ربيع سنة 1954؛ التي كنت قد ألفتها، وأسهمت هذه الألفة في زرع اقتناعي بوطنية الوفد المصري، دون غيره من الأحزاب العلنية المصرية.

نشرت أولى مقالاتي في الصحف، وأنا في السنة الثانية الثانوية سنة 1954، بمدرسة فلسطين الثانوية، في مدينة غزة؛ وكنتُ في السادسة عشرة من عمري؛ وأصدرتُ أول مجلة حائط في المدرسة المذكورة، في السنة نفسها، ناقلاً التجربة من مدرسة العريش الثانوية، التي قضيتُ فيها العام الدراسي 1954/1953. ونالت "المرصاد"—وهذا هو اسم صحيفة الحائط التي أصدرتها—الجائزة الأولى، بجانب صحيفتين أُخريين صدرتا، بعد "المرصاد". وأذكر أن جائزتي تمثّلت في كتابين، أولهما: "ثمن إسرائيل" لِألفرد ليلينتال Alfred Lilienthal، والآخر، كان أول ديوان للشاعر السوداني، محمد الفيتوري "أغاني إفريقيا".

استمر ولعي بقراءة الصحف والمجلات، وتطور الأمر إلى تلخيصي أهم ما أقرأ في كراسات، ورسم الشخصيات التي أحبها، بدءاً من فاتن حمامة، وسامية جمال، وفريد الأطرش، ونواب صفوي Navvab Safavi (الزعيم الإيراني). وانغمستُ في العمل السياسي حتى أذنيّ.

تطور الأمر، فأودعت المعتقل في 1959/8/10، في السجن الحربي، بالقاهرة؛ وبعد نحو سنة، نُقلتُ إلى سجن المحاريق في الواحات الخارجة. وهناك التقيتُ بنحو ألف معتقل وسجين مصري، مشتبه في انتمائهم للحزب الشيوعي المصري، عدا مجموعة صغيرة من الإخوان، وأخرى من السجناء الجنائيين.

هنا، اكتشفتُ بأنني لست "فرخة بكشك"، في السياسة والإعلام.

استفدت كثيراً من حضور الندوات، والصحف المنطوقة الست، ومنها الطريق والأفق؛ "حيث أثّم "قانون الاعتقال"، الذي أصدره "مجلس قيادة الثورة"، صيف 1956، استخدام الورقة، والقلم"؛ فاحتفظت لنفسي بمقال سياسي في إحداها، وبلوحة كاريكاتيرية في أخرى، أرسمها على بطانية، بأصبع "حُور"، المتوفر في الصحراء، ولم أكتفِ بذلك، بل وتمنيت على الصديق الكبير صلاح حافظ، وكان كاتباً صحفياً متميزاً، تنظيم دورة صحفية لمعتقلي غزة، فوافق على تنظيمها، وتلقى فيها كل من محمود عويضة، وعمر عوض الله، وذيب الهربيطي، وكاتب هذه السطور محاضرات قيّمة لصحفيين متميّزين؛ مثل فتحي خليل، وإبراهيم عامر(فن المقال السياسي)، وحسن فؤاد (الإخراج الصحفي)، وزهدي العدوي (الكاريكاتير السياسي)، وصلاح حافظ (التوجيه الصحفي والمصدر الصحفي). هنا، فحسب، يجوز لنا القول "إن السجن مدرسة للثوّار".

خرجنا من المعتقل، على خمس دفعات، كانت الرابعة من نصيبي مع خليل عويضة ومحمود عويضة؛ وهما ليسا قريبَين، فأولهما من غزة والثاني من بلدة الفالوجة، وخرجت الدفعة الأخيرة من المعتقلين الفلسطينيين في آذار/ مارس 1963.

***

كتبتُ أول دراستَين في حياتي، سنة 1965، وحملت أولاهما عنوان "الاشتراكية والدين"، بمناسبة التهمة التي لُفِّقَت للحزب الشيوعي السوداني، آنذاك؛ بمعاداة الدين.

ومنذ أن انتقلت إلى القاهرة في 1968/6/28، توجهت إلى المجلة الفكرية الشهرية، ذائعة الصيت، "الطليعة"، وكان عبد الناصر قد خصَّصها لليساريين، وبدأتُ أنشر فيها، بدءاً من عدد تشرين الثاني/ نوفمبر 1968، وواظبتُ، بعد ذلك، على نشر دراسات في التاريخ الوطني الفلسطيني عبرها؛ ومنها ثورة 1936، وحركة القسّام؛ وهبَّة البراق، ولمحة خاطفة عن الحركة الوطنية الفلسطينية، عدا دراستَين عسكريتَين؛ هما حرب العصابات المضادة من قفزة الضفدع إلى حركة القنفذ وفن حرب الصحراء. وفي الوقت نفسه، واظبتُ على الكتابة في شهرية يسارية أخرى، هي "الكاتب"، وأنا لا أدري بأن من يكتب في "الطليعة"، يُحظر عليه الكتابة في مجلات أخرى، خصوصاً في "الكاتب". واستمر هذا الوضع، حتى سنة 1974، حيث نقلتُ نشاطي إلى مجلات شؤون فلسطينية والآداب ودراسات عربية في بيروت، وآفاق عربية والثقافة والثقافة الجديدة في بغداد، والثقافة العربية والشورى الليبيتَين.

***

عانيتُ كثيراً من استعصاء الأُسُس العملية للبحث الأكاديمي، فلم أكن قد ألممتُ بضرورة أخذ المقتطفات في بطاقات بحث، وبعد استكمال جمعها يتم تصنيفها اعتماداً على خطة البحث، قبل أن أبدأ الكتابة، حتى أهداني إلى الطريق القويم الصديق عادل الجمبلاطي، أحد أمناء مكتبة المعهد العالي للدراسات الاشتراكية في القاهرة. ولم أزل أحفظُ له هذا الجميل إلى يومنا هذا.

من هنا، آليتُ على نفسي أن أبذل قصارى جهدي، كي أُجنِّب كل من يرغب في سلوك طريقي هذا، ما اعترضني من عقبات وعثرات؛ فبدأتُ، منذ سنة 1973، هذا العمل مع أفراد متناثرين؛ وبعد نحو السنتين، نظمت دورة صحفية وأكاديمية، في مقر "الاتحاد العام للطلبة الفلسطينيين" في مصر الجديدة؛ حضرها 15 دارساً، وألقى فيها محاضرات كلّ من خالد محيي الدين، ود. فؤاد مرسي،

ود. عبد الخالق لاشين، وزهدي العدوي، وأديب ديمتري، وصلاح حافظ، وعبد الحميد سرايا (سكرتير تحرير "الأهرام")، وكاتب هذه السطور. ومن بين من تخرَّجوا من هذه الدورة العقيد حسن أبو لبدة، رحمه الله، الذي غدا رئيساً لتحرير شهرية "المجلة العسكرية الفلسطينية"، بعد نحو ثماني سنوات من حضوره الدورة المشار إليها.

أولاً: دورة فورشة في دمشق:

لم تُستثنَ الساحة الفلسطينية في سورية من الأزمة العامة والإحباط، اللذين أخذا بأعناق الناس، على نحو لم يعد يُجدي معه "التحميص" (وهو مصطلح للسخرية من تحميس الجماهير بطريقة مبالغ فيها)، الذي دأبت بعض الفصائل على ممارسته، فهذا خطاب فات أوانه منذ زمن.

ألحَّ عليّ عضوان في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين – القيادة العامة، هما المرحومان بشّار إبراهيم وغسّان شهابي، كي أبدأ التجربة، خصوصاً وأن مقر الخالصة، في مخيم اليرموك، التابع للجبهة المذكورة، مُهيّأ للدراسة فيه.

وفي ربيع سنة 1990، خضنا غمار المحاولة، ولم تخلُ من الفترة التجريبية، حيث عقدنا دورة صحفية ضمت ثمانية شبان؛ مناصفة بين الإناث والذكور، وبين السوريين والفلسطينيين، وبين الجامعيين وغير الجامعيين.

اخترنا غرفة الزميل عماد عوكل (أبو غسان)، في مبنى الخالصة، بمخيم اليرموك، بدمشق، مكاناً نلتقي فيه لمدة ساعة يومياً، لِتلقي محاضرة في الكتابة السياسية، أو الفن الصحفي، وكانت تتسم بالاقتضاب والبساطة والعمق، في آن معاً.

نجح من هذه الدورة شابان، سرعان ما كتبا ونشرا في الصحف، وانفتح أمامهما طريق طويل، واصلا السير فيه بنجاح مطرد؛ هما إبراهيم وشهابي.

ومن هذه الدورة التجريبية، توصّلنا إلى عدة نتائج؛ في مقدمتها أن الطلاب الجامعيين والنساء العاملات يُصعب عليهم "حمل بطيختَين بيد واحدة". فما جعل الله لامرئٍ من قلبَين في جوفه، كما أن "صاحب بالَين كذاب وصاحب ثلاثة منافق". فالطالب لا يستطيع التوفيق بين دراسته الأكاديمية، واستيعاب الفن الصحفي؛ ومن هنا، يتعامل مع الأخير كهواية. وفي مجتمعنا يستحيل على المرأة العاملة أن تتمكن من الفن الصحفي، بينما تتكدس أعمال البيت في انتظارها، عدا تربية الأولاد (ومعهم والدهم، غالباً)!

أما ربة البيت، فهي أهلٌ للنجاح في مثل هذه الدورة أكثر من غيرها؛ أولاً، لأنها تجد في مواد هذه الدورة تعويضاً عما فاتها من التعليم، وثانياً، لأن هذه الدورة تؤهلها للكتابة في الصحف والمجلات، ما يوفر لها حيثية اجتماعية في وسطها، وثالثاً، إن الدخل الذي توفره كتاباتها، يحقِّق لها نفوذاً أدبياً ومعنوياً في أسرتها؛ ورابعاً، ففي صحبة الدارسين والدارسات تعويض صحي عن "جلسات النميمة" مع النسوة المتفرغات لنهش سيرة الناس، والثرثرة في "الفاضية" و"المليانة"؛ لذا، تحافظ ربة البيت على الدورة، في حدقات عيونها.

استقبلت "الورشة"، على مدى وجودها في دمشق، نحو عشر سيدات من ربات البيوت، أربع منهنّ لم يكنّ يزاولن عملاً. وهنّ موضوعنا هنا؛ اثنتان جامعيتان والأخريان لم تحصلان إلا على الإبتدائية، استمرت إحداهما في "الورشة"، حتى النهاية، أما الأخرى، فغادرت سكنها في مخيم اليرموك وعادت إلى القنيطرة بعد انسحاب القوات الإسرائيلية منها. ما يجعلنا نتخذ من ربة البيت قبل الأخيرة، وسيلة إيضاح، على ما أقول هنا.

كانت في نحو الخامسة والثلاثين من عمرها، عندما انتمت إلى "الورشة" سنة 1992؛ سورية الجنسية، تحدَّرت من حي الميدان، المعروف بتزمته الديني؛ لذا، لم يكن غريباً أن يزوِّجها أهلها قبل أن تحصل على الإعدادية! حيث أقامت، بعد ذلك، في مخيم اليرموك.

خلال أحد لقاءاتي بهاتين السيدتين، عرضتا عليَّ بأن ينضما إلى الدورة، رحبت، كعادتي، لكنهما لم يحضرا في الموعد المحدد للدورة؛ وحين التقياني، ثانية، استغربتا بأنني لم أسألهما عن سبب تغيبهما، فأفهمتهما، بأن من تقاليد "الدورة" بأنها مفتوحة، من جهتيها، من أراد فليحضر، ومن رغب في المغادرة،

فليغادر. إن الأمر رهن برغبة الدارس، دون غيره. صارحتاني بأن زميلة لهما (دارسة في "الدورة") حذرتهما من حضور "الدورة"، التي لا تقبل إلا الجامعيين، ما جعلهما يتجنبان الإحراج، ويعدلان عن الحضور. لكنهما سعدتا، حين أبلغتهما بانفتاح "الدورة" على الجميع، دون شروط مسبقة. فحضرتا في الموعد التالي.

عند نهاية "الدورة"، اقترحت السيدة المعنية، بأن تحوَّل من مجرد إلقاء المحاضرات من قبل المشرف وبعض المحاضرين من خارج الدورة، إلى توزيع تكليفات على الدارسين بكتابة أبحاث، بهدف نشرها، ويتولى المشرف متابعة الدارس، بدءاً من جمعه للمصادر والمراجع، إلى كتابة بطاقات البحث ثم تصنيفها، فإنجازه الدراسة. وفي كل خطوة، تتم مناقشة الدارس المعني من قِبل كل الدارسين، بالإضافة إلى المشرف، قبل إرسال الدراسة إلى المجلة لنشرها، وقد حصل ذلك، وهنا، تحوّلت "الدورة" إلى "ورشة".

صارحتني ربة البيت نفسها بأن زوجها أراد أن تقتنع هي، بنفسها، بأنها لن تكون كاتبة، أو باحثة، فأتى بها إلى "الدورة"؛ لذا، هي في أمس الحاجة إلى إقناع زوجها، بالسرعة الممكنة بجدارة زوجته.

تلقت السيدة، مع زملائها الدارسين، محاضرتي عن "مراجعة الكتاب"، وعند انتهاء الجلسة، ناولتها كتاباً وطلبتُ إليها إعداد مراجعة عنه، لنشرها في مجلة محلية، وبالفعل نشرت أسبوعية "إلى الأمام" المراجعة الموماً إليها وصرفت لصاحبة المراجعة خمسمئة ليرة سورية، وبذلك اقتنع زوجها بعكس ما كان يحاول هو إقناعها به.

بعد حين، نشرت فصلية صامد الاقتصادي أول دراسة للسيدة نفسها، حملت عنوان "الاستخدامات السلمية للطاقة الذرية في إسرائيل"، هنا، زارني الصديق زياد أبو شاويش، رحمه الله، وحضرَت اللقاء المحامية منى أسعد، إحدى المنتسبات لـ"الورشة". ابتدأ الصديق بالتأكيد على أن أم ياسر لا يمكنها أن تكتب تحت هذا العنوان، ردت السيدة أسعد: "بل هي التي كتبت هذه الدراسة؛ وإن كان المشرف هو من وفَّر لها المراجع والمصادر"، ردَّ الصديق: "فلنترك هذا كله، ونكتفي بفقرة استهلال الدراسة"، ردت المحامية بأن المشرف اعترض على هذا الاستهلال الرومانسي، في موضوع شديد، كالذرَّة، لكن الدارسة أصرّت على استهلالها، ما جعل المشرف يرد بأنه سيرسل الدراسة إلى المجلة، التي ستقص هذا الاستهلال، أغلب الظن، الأمر الذي لم يحدث، ونزل الاستهلال. ومرت الزوبعة على خير.

اتفقنا نحن الثلاثة على زيارة الدارسة المعنيَّة، وسألتُها عما أبقاها على صلة دائمة باللغة العربية، وكتابتها. قامت وأتت بكومة من الأجندات والكراريس، التي غصَّت بذكريات الدارسة وانطباعاتها منذ تزوجت قبل نحو 16 عاماً، وهنا تكشَّف لنا هذا السر.

وقد حاضَرَ في ورشة دمشق؛ كلاً من كمال رمزي (في النقد السينمائي)، وأنور رجا (كيف نجحت في رئاسة تحرير مجلة)، وفضل شرورو (تكنيك البحث الأكاديمي)، وأكرم اليوسف (المسرح الفلسطيني).

إلى المعالجة بالأعشاب:

مرّت السيدة المعنية بي، وقالت لي: "لقد وقعت في شر أعمالك"!، فسألتها عن الأمر، ردَّت بأن أمها استدعتها إلى حي الميدان الدمشقي، وأخبرتها بأنها أُصيبت بانزلاق غضروفي، وأن عليها، باعتبارها ابنتها الكبيرة، أن تمر بها كل صباح، للقيام بأعمال البيت. ثم قالت لها الأم: "مشرفكم بعرف كل شيء، إسأليه عن علاج الانزلاق الغضروفي". قلت للسيدة نفسها: "الأمر بسيط، خذي لوالدتك قطعة صبّار، واقسميها كالساندوتش، وعرّضي الجزء الصمغي منها لوعاء فيه ماء يغلي، ثم ادعكي لأمك مكان الألم، بهذه القطعة من الصبّار، وكرّري الأمر مع القطعة الأخرى، وثبتيها على مكان الألم، من المساء حتى الصباح".

عادت السيدة إلى أمها، وفعلت ما نصحتُها به؛ وزارت أمها، صباح اليوم التالي، فرأتها وقد غادرت فراشها، وجلست على كنبة عربي، وأخذت تنصح جارتها بكيفية معالجة الانزلاق الغضروفي، عند زوج الجارة! دُهشت السيدة المعنية، لكن والدتها طلبت إليها العودة إلى منزلها، بعد أن تعافت الأم.

ذات يوم، استأذنت المحامية منى أسعد في الانصراف باكراً، حتى تلحق بموعدها مع الطبيب الذي اشتبه في إصابتها بقرحة في المعدة؛ ما تطلب خضوعها للمنظار. حذّرتها زميلاتها من الألم الذي يسببه المنظار ونصحتها بأن تكتفي بتناول ما أصفه لها من علاج عشبي، لكن أسعد لم تعبأ بنصيحتهم. وما إن جاءت إلى جلسة الورشة، بعد أسبوع، لتعلن ندمها على تعرضها للمنظار لما

سببه لها من ألم مبرح. مع هذا كله، فإنها تعاطت ما وصفه لها الطبيب من أدوية، وبعد أسبوعين، جاءتني مطرقة رأسها، طالبة العلاج العشبي، فوصفته لها. وبعد نحو ثلاثة أسابيع، كنت أنا وهي، في ضيافة الصديق العزيز أبو فراس (فضل شرورو)، مسؤول الإعلام وعضو المكتب السياسي للجبهة الشعبية – القيادة العامة، وحين غادرنا مقره، قطع علينا الطريق مطعمان وكنتُ جائعاً فدعوتها لتناول الغداء، رحبت بالدعوة، ولكنها اعترضت على مطعم اللحوم المشويَّة، وألحَّت على الدخول إلى مطعم الفول والحمُّص، فحذَّرتها بأن الطعام الثاني مضر بمعدتها، لكنها لم تعبأ. وحين دخلنا المطعم، فاجأتني بأنها طلبت مخلّل (طُرشي) مع الطعام؛ فنبهتها إلى الضرر الذي سيلحقه الطرشي بمعدتها؛ ولم تعبأ، وأردفت بأنها شفيت تماماً، بعد نحو أسبوعين من تناولها وصفتي (بطاطس نيئة)! وحين سُمح لي بالعودة إلى مصر، تمنت عليّ أسعد بأن أكتب لها وصفاتي الطبية، ففعلت وسلمتها القائمة بعد خمسة أيام، في خمس صفحات فولسكاب (الصفحة الكاملة).

حدث أن مررتُ بمقر التنظيم النسائي للجبهة الشعبية – القيادة العامة والتقيت إحدى الدارسات، فعاتبتني بأن أعضاء التنظيم النسائي لا يعرفن إلا أنني أصرف وصفات الأعشاب لمن يتساقط شعرها، أو تعاني من النمش أو الكَلَف. فسألتها عن رأيها بإحدى فتيات التنظيم، أكّدت لي بأن لا علاقة لها بالثقافة، من قريب أو بعيد؛ هنا ناديتُ على الفتاة المعنية، وسألتها عن رأيها في آخر كتاب أعطيته لها؛ فبدأت تشرح لي وتسأل عن بعض الفقرات وتنتقد أخرى، ما جعل الدارسة إياها تفغر فمها دهشة!

لعل من المفارقات العجيبة، في هذه الدورات الصحفية، أن من تلقّى تربية سياسية في حزبه يُفترض أنه مهيّأ أكثر من غيره لاستيعاب المحاضرات والإجادة في التدريب العملي، بينما انقطع نَفَس المتفرغين الحزبيين وهجروا الدورة أغلب الظن؛ لأن بَدَل التفرغ المادي الذي يتقاضونه من فصائلهم أغناهم عن الدخل الذي ستوفره لهم الكتابة السياسية، ولعل في هذا ما يُفسِّر الكسل السياسي والثقافي الذي يعاني منه هؤلاء "المحترفون الثوريون"!

مواد الدراسة:

عقدنا حتى صيف سنة 1993، خمس عشر دورة، ضمَّت زهاء مئتي دارس، نجح منهم نحو ثلاثين دارساً؛ حيث كتبوا ونشروا في عدة مجلات، أذكر منها بالإضافة إلى "صامد"؛ الفكر الاستراتيجي العربي والسفير البيروتيتين، وإلى الأمام الدمشقية.

وحتى الدورة التاسعة، كنا نعطي ثلاثة أنماط من المحاضرات، فنبدأ بمحاضرات في "المنهج"، ونلحقها بمحاضرات "الكتابة السياسية"، ونختتم بمجموعة "الفن الصحفي".

في المجموعة الأولى من المحاضرات، يتم تكليف الدارسين بإعداد محاضرات، وإلقائها في الفلسفة، والاقتصاد السياسي، والتنظيم الحزبي، والطبقات، والصراع الطبقي، والاستراتيجية والتكتيك، والعمل الجماهيري، وتطور الحركة الوطنية الفلسطينية، والصهيونية، ودولتها. وكلها مكتوبة سلفاً من قبل المشرف على الورشة.

وفي النمط الثاني، يتلقى الدارسون أربع محاضرات، في: المقال السياسي، والتعليق والافتتاحية، والبحث الأكاديمي، ومراجعة الكتب.

ثم ننتقل إلى محاضرات "الفن الصحفي"، وتتضمن: الخبر، والتحقيق الصحفي، والمقابلة الصحفية، والإخراج، وهيئة التحرير، وقسم المعلومات الصحفية.

في الدورة الثالثة؛ من كانون الأول/ ديسمبر 1991 ولغاية كانون الثاني/ يناير 1992، تصادفَ وجود ناقدنا السينمائي كمال رمزي في دمشق لحضور مهرجان دمشق السينمائي، انتهزنا الفرصة واصطدناه في محاضرة عميقة، خفيفة الظل، في "النقد السينمائي".

التحوُّل إلى ورشة:

بعد الدورة المذكورة، اتضح بأنه من الأجدى فصل الأنماط الثلاثة عن بعضها البعض، ببضعة أشهر من التدريب المتلاحق لتلقي المحاضرات.

ابتداءً من هذه الدورة، أدخلنا التدريب إلى جانب الدراسة النظرية، فتحوّلت الدورة إلى ورشة، بكل معنى الكلمة. حيث يقرأ أحد الدارسين ما سبق وأن كُلِّف به؛ من دراسة، أو مراجعة كتاب، أو خطة بحث، ليتلقى ملاحظات زملائه الدراسين، ويناقشها قبل أن يأخذ بها أو يرفضها كلها أو بعضها. ثم يُعيد صياغة الموضوع، قبل أن يراجعه رئيس تحرير الورشة، وندخل مرحلة التجديد، خصوصاً في الأسلوب، ليُحوّل الموضوع إلى مجلة لنشره، ولم يحدث أن رُفض موضوع واحد، فجُلّ هذه الموضوعات في مستوى النشر. وقد خصصنا يوماً واحداً من كل أسبوع نلتقي فيه دورياً لهذا الغرض.

فاجأتني إحدى الدارسات باقتراح أن نبدأ مُركِّزين على محاولة تخريج دارسين متخصصين، أجبتها بأن هذا عكس المنطق التربوي؛ فالطبيب يبدأ بدراسة الطب في عمومه؛ وبعد ممارسته الطب، على هذا النحو لبضع سنوات، يطلب بأن يتخصَّص في معالجة مرض بعينه، هنا، يقتضي الأمر بأن يخضع هذا الطبيب العام إلى فترة دراسية خاصة، تُركِّز على التخصُّص الذي طلبه. ويُنسب إلى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه قال، في هذا الصدد: "اعرف شيء عن كل شيء، واعرف كل شيء عن شيء". وإن أصرَّ بعض مثقفينا على أن ينسبوا هذا القول للبريطانيين؛ ما يُذكِّر بإصرار هذا النوع من المثقفين على إطلاق صفة "إليت Elit"، على النُخبة أو الصفوة؛ ولعل ما يُثير الاستهجان هنا أنها ترجمة لكلمة "عَلية"، المأخوذة من الجملة العربية الشهيرة "عَلية القوم"!، لكن ماذا نقول فيمن يعانون من "عقدة الخواجة؟!"

منذ سنة 1993، تولى دارسان اثنان سكرتارية تحرير مجلتيْن، أولاهما سورية والثانية لبنانية.

والدورة لم تراوح في مكانها، ففي سنة 1992، توزعنا في مشروع كتاب من خمسة عشر فصلاً، عن "جريمة أمريكا في فلسطين"، أنجزناها في أربعة أشهر، قضاها أربعة عشر دارساً، وأنا، في تحديد المراجع والمصادر، وإعداد خطة كل فصل على حدة، والكتابة، وإنجاز التكليفات.

لعل أجمل ما في هذه الظاهرة روح الفريق التي تسودها، حيث نتبادل المراجع والمصادر، ويعطي الواحد منا الآخر مقتطفات تخصّ عمله، أو يلفت نظره إلى مقال أو دراسة أو كتاب يُغني موضوعه... وهكذا.

بعد حين، اكتشفنا مدى فقر المكتبة الفلسطينية في الأعلام الفلسطينية السياسية والعسكرية والثقافية، حيث لم يتم تقديم سوى قلة من القادة البورجوازيين، في هذه المجالات. وإذا كان طبيعياً أن تتباهى البورجوازية بأعلامها، وتراهم مجرد نماذج لما يمكن أن تقدمه هذه الطبقة من التضحيات، فإن اللافت للنظر أن الكُتّاب والمؤرخين الكادحين انبهروا بهذه الأعلام البورجوازية، التي وُلدت وفي أفواهها ملاعق من ذهب؛ ومع ذلك، نزلت إلى الشارع تقاتل مع الكادحين، وتُضحي من أجل الوطن والشعب. بينما أهمل الكُتّاب، البورجوازيون والبروليتاريون، على حدٍّ سواء، أمر القادة الذين تحدَّروا من صفوف الطبقات الشعبية، ربما لأن ما اجترحوه من بطولات أتى من داخل دائرة التوقع!

بعد أن توفرت عناوين الكتب المقترحة والكُتّاب والقراء، بقيت مشكلة دور النشر التي خفّ حماسها للموضوع الفلسطيني، وانعدم هذا الحماس لنشر كتب لمؤلفين من خارج قائمة النجوم، ناهيك عن رُكام المخطوطات في هذه الدور، التي تنتظر دورها ضمن خطط السنوات القادمة.

هنا، طفِقنا نفتّش عن حلٍّ لهذه المعضلة، ووجدناها في تأسيس تعاونية للنشر، وجعلنا من الهواء الطلق مقراً لها، ومن الدارسين مساهمين فيها؛ برأس المال والتوزيع في آن معاً، وحددنا ألف ليرة سورية للاشتراك الواحد، زهاء ستين جنيهاً مصرياً، آنذاك. وأصدرنا في حزيران/ يونيو وآب/ أغسطس 1993 كتابَين؛ أولهما، "الثلاثاء الحمراء في الحركة الوطنية الفلسطينية"، وثانيهما، "عبد الرحيم الحاج محمد/ القائد العام لثورة 1936-1939". وقد أنجز الكتاب الأول مؤلف مصري شاب، هو عادل مجاهد عشماوي، وفيه ألقى الضوء على نقطة واحدة من التاريخ الفلسطيني المعاصر؛ حيث أقدمت سلطات الاحتلال البريطاني على إعدام ثلاثة مناضلين فلسطينيين، في 1930/6/17، بتهمة قتل بعض الصهاينة، إبان هبَّة 1929 الوطنية الفلسطينية، وقد مجَّد الشعب الفلسطيني هؤلاء الأبطال، وأحيا ذكراهم بالأهازيج والأغاني، إلى أن أتى عشماوي، وقدَّم بانوراما كاملة عن هؤلاء الأبطال، وليلة إعدامهم في سجن عكا. بينما أنجزت الدارسة انشراح عاشور الكتاب الثاني، عن قائد مقاتل فذّ، فرض نفسه،

وسطّر بطولات استثنائية، وعبّر أداؤه السياسي والعسكري عن وعي سياسي فريد، وإلمام جيد بحرب العصابات بمعايير ذلك الزمان، وربما بمعايير زماننا هذا أيضاً.

وحددنا ما بين الـ 4-6 كتب لنصدرها في السنة الواحدة.

وفي سنة 1993، أصدرت الدارسة المحامية، منى أسعد، كتيّباً عن المفكر والأديب التقدمي الفلسطيني المعروف، نجاتي صدقي. وأتبعته بموسوعة "التشريعات الصحفية في فلسطين" سنة 1995.

تزخر قائمة الشخصيات التي توزعنا في تكليفاتِ الكتابة عنها بأسماء من مجالات متنوعة، ففيها المجاهد القسامي الشهيد فرحان السعدي، وشيخ الصحافة نجيب نصار، والعلامة الموسوعي قدري طوقان، وعميد الترجمة عادل زعيتر، والقائد القسامي المعروف أبو إبراهيم الكبير، ورائد المطارد في فلسطين أبو جِلدة، والقائد الوطني المعاصر أحمد الشقيري...إلخ.

لقد أعطينا أولوية للكتابة عن الرموز التي لم يسبق تقديمها إلى القراء، كما أعطينا الأولوية للرموز العربية التي عملت في فلسطين، مثل: أحمد عبد العزيز، ومصطفى حافظ، ومحمد علي علوبة، والشيخ محمد الأشمر، وسعيد العاص.

لا يبدأ الدارس في كتابة بحثه، قبل أن يقطع طريقاً شائكاً طويلاً من التحضير والبحث والتقصي في موضوع الدراسة وحولها. على سبيل المثال، فإن المهندس أحمد عبد الله تعهد بإنجاز بحث عن الشيخ فرحان السعدي، وبدأ في حصر المراجع والمصادر، ثم استدار ليلقي محاضرات في الدارسين، حول الحركة الوطنية الفلسطينية 1918-1934، وحركة القسام سنة 1935؛ وثورة 1936-1939، بالإضافة إلى استعراض معاناة الفلاحين الفلسطينيين من الانتداب البريطاني والحركة الصهيونية 1918-1939. فالسعدي ابن الحركة الوطنية، وكادر قيادي في تنظيم القسام، وأحد القادة العسكريين لثورة 1936-1939، بالإضافة إلى أنه ابن الريف الفلسطيني. أما ربّة البيت ميساء الزغبي، أم ياسر، فتكلفت بإنجاز دراسة عن نجيب نصار، صاحب ورئيس تحرير جريدة "الكرمل" 1908-1948. وبعد قيامها بحصر المراجع المطلوبة لبحثها، أعدَّت مجموعة من المحاضرات، لتلقيها على الدارسين، أولها حول "الحركة الوطنية الفلسطينية 1918-1948"، فنصار ابن هذه الحركة، وأحد أهم المعبّرين عنها؛ وثاني هذه المحاضرات في "الحركة الصحفية الفلسطينية"، فصاحبنا أحد أهم روّادها، بالإضافة إلى محاضرة ثالثة، عن "النشاط

الصهيوني في فلسطين 1918-1948"، من هجرة، واحتلال أراض، واجتثاث مواطنين، وإحلال مستوطنين يهود مكانهم، لأن نصار جعل من هذا النشاط هدفاً، يُقاتل ضده... وهكذا دواليك.

بعد مناقشة خطة البحث، وإقرارها من الدارسين (الجمعية العمومية التعاونية – النشر)، يعرض الباحث مادة كل فصل على حدة على الجمعية العمومية، وبعد اعتماد كل الفصول، يتم تحويل مخطوط الكتاب برمته إلى لجنة القراءة، التي تضم الزملاء: علي فياض، وسميح شبيب، وماجد كيالي، وهم باحثون متمكنون، وبعد المداولة، تعود لجنة القراءة لمناقشة الباحث في حضور أعضاء الجمعية العمومية ومشاركتهم، ولا يمر المخطوط دون اعتماد اللجنة له، حيث يأخذ طريقه فوراً إلى المطبعة ليصل إلى أيدي القراء بعد زهاء شهر واحد، وتشرف على عملية تحوّل المخطوط إلى كتاب للتداول لجنة سباعية، تضم رئيس التحرير، ونائبه، وسكرتير التحرير، وأمين سر اللجنة، وأمين الصندوق، ومسؤول التوزيع، بالإضافة إلى سكرتيرة الدورة. وبعد صدور الكتاب، تبدأ عملية الترويج له؛ بأخبار ومراجعات نقدية، وفي وسائط الإعلام من صحف، وإذاعات، عدا تنظيم مناقشات واسعة له، كلما كان ذلك ممكناً؛ وينوب المؤلف 15% من سعر الغلاف، بما يزيد 5% عن المكافأة الدارجة في دور النشر العربية.

الحساب الختامي:

بعد هذه الجرعة السريعة لإنجازات أربعين شهراً من العمل المضني المتصل، يهمّنا أن نخرج بجملة من الدروس المستفادة:

1. ما كان لهذا العمل الثقافي الوطني أن يأتي بمردوده، دون دعم العامل السياسي. فمن العبث فصل الثقافة عن السياسة، ليس في وعينا وحسب، بل أيضاً في الممارسة، وإلا غدا مجموع هذه الدورات جهداً ضائعاً. وقد عزَّزت المعونات المادية والمعنوية، التي قدمها الكاتب السياسي المعروف فضل شرورو والقائدة النسائية سميرة جبريل والصديق رافع الساعدي، جهود الدورة فالورشة، وغدت في مقدمات شروط نجاحهما.

2. ما كان لهذه الدورة أن تنطلق وتنجح على هذا النحو، لولا الحماسة الشديدة للصديق العزيز فاروق وادي للورشة والدارسين فيها، بعد أن لفت نظره مدى دقة وإتقان ما يكتبون، وخصوصاً في مجال الهوامش والحواشي.

3. يندرج هذا العمل تحت بند "العمل الجماهيري"، بسبب ارتباطه بالتجمعات الشبابية والنسائية أساساً، وهو أيضاً جسر بين الأجيال طال انقطاعه في المجال الثقافي. إنه واجب جيلنا، تجاه الأجيال الشابة.

4. في لحظات الهبوط الوطني تغدو الثقافة ملاذنا. لأن المثقف تصعب هزيمته، ولأن ما يُسطّره القَلَم يصعب على السيف، حسب التعريف الروسي.

5. كما أن ثمة مهارات جديدة يكتسبها الدارس، فيمتلك مهنة جديدة تُعينه في هذه "الأيام السودا"!

6. نجح نحو ربع المتقدمين إلى "الورشة"، على أن هذا لا يعني أن ثلاثة أرباع الدارسين لم يستوعبوا، أو أنهم ليسوا أهلاً للورشة. بل إن ثمة استعصاءات من الشواغل والمشاكل حالت دون مواصلتهم المسيرة. ومن جهة أخرى، فإن الناجحين ليسوا سوية واحدة، فثمة تفاوت ملحوظ ومنطقي في درجة الاستيعاب ومستوى الإبداع.

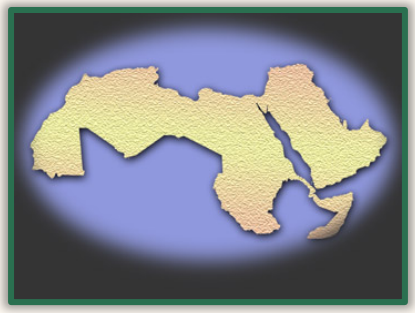

7. إننا إزاء جامعة شعبية عربية، فبين الدارسين؛ الفلسطيني، والأردني، والسوري، والمصري، والسوداني، والليبي، والجامعة هنا بالمعنى السياسي والثقافي في آن واحد.

8. ولأننا لسنا حزباً سرياً، فإننا لم نُخضع الدارسين إلى فترة ترشيح نُراقب خلالها سلوكهم، فإننا اصطدمنا بقلة من المأزومين نفسياً، والأنانيين، والثرثارين، والفاشلين، الذين يعلّقون فشلهم على شماعة الورشة، ولكن نسبتهم لم تتعدَ 1% من مجموع الدارسين. ناهيك عن الحواجز الطيّارة، التي يفاجئنا بها بعض مثقفي الأبراج العاجية، الذين يأنفون من النزول للجماهير، ويأخذون على غيرهم مثل هذا السلوك، على أن قافلتنا واصلت المسير غير عابئة بالأصوات النشاز، متمسكين بقوله تعالى " فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ"، صدق الله العظيم.

ثانياً: الورشة في القاهرة:

تدحرجت كرة "الورشة"، من دمشق إلى القاهرة، بدءاً من 1996/6/22، حين سمح لي وزير الداخلية بالعودة إلى مصر، بعد نحو ثماني عشرة سنة ونصف السنة في المنفى.[2]

في زيارتي قبل الأخيرة للقاهرة، خريف سنة 1995، زارتني صبية صديقة للأسرة، هي هالة منصور، ومعها صديقتيْها: فاطمة خير ودنيا الأمل إسماعيل حسونة، الأولى والثالثة فلسطينيتان،[3] وعرضن عليَّ مواصلة تجربة "الورشة" في مصر؛ فوافقتهن، بعد تردد. وبعد يوميْن أو ثلاثة رتبت الصبايا الثلاث أول جلسة للورشة في القاهرة في 1995/10/21، وضمّت هذه الجلسة اثنيْ عشر دارساً، نصفهم مصريين ونصفهم الآخر ما بين فلسطينيين وسودانيين، وحدث اللقاء في مكتب يومية "السفير" البيروتية في القاهرة، الذي كان يديره عمرو ناصف؛ واتخذنا من هذا المكتب مكاناً للقاء أسبوعي، وأخذت في إلقاء محاضراتي إياها على الدارسين، وبدأوا هم في إلقاء المحاضرات المقررة سلفاً عليهم. وبعد بضعة أسابيع، ادعى ناصف بأن جهاز الأمن طلب إليه قطع علاقته بنا!

---

[2] حين كنت في زيارة إلى القاهرة، لمدة أسبوعيْن، صيف سنة 1995، باستثناء من وزير الداخلية، وبتدخل من **د. رفعت المحجوب**، رئيس مجلس الشعب، حينذاك، حدث أن زرت صديقي، **د. أسامة الغزالي حرب**، وكان وقتها رئيساً لتحرير فصلية "**السياسة الدولية**"، فبادرني بالسؤال: "لماذا لا تسعى للعودة إلى مصر؟!"، رددت بأنني لم أحاول، مكتفياً بسماح الداخلية لي بزيارة القاهرة، مرة كل ستة أشهر. هنا، بادر الصديق حرب، وأفهمني بأنه سيطلب إلى الأستاذ **إبراهيم نافع**، رئيس تحرير ومجلس إدارة "**الأهرام**"، أن يكتب إلى وزير الداخلية بضرورة إعادتي إلى مصر؛ ثم طلب حرب إليَّ أن أكتب صيغة الرسالة المطلوب توجيهها إلى وزير الداخلية؛ وبعد أن كتبتها، لم يغيّر فيها حرب إلا كلمة "أرجو"، إذ شطبها، وأوضح لي: "إن رئيس مجلس إدارة (الأهرام) يوازي رئيس مجلس الوزراء في مصر، لذا هو هنا لا يرجو".

عدت إلى دمشق، وبعد عدة أيام أوصل **مازن الشوا**، الصحفي الفلسطيني في "**دار أخبار اليوم**" القاهرية، صورة من رد وزير الداخلية على رسالة نافع، إلى زوجتي، بالموافقة على عودتي إلى القاهرة، وقد كان. فذهبت إلى دمشق، لأصفي أوضاعي، هناك، وانتهيت من هذه المهمة، صيف السنة التالية.

[3] اعتادت الصبايا الثلاثة على مناداتي بـ"**عمو**"، وزوجتي بـ"**خالتو**"، مما نقل العدوى إلى كل من انتمى إلى الورشة، لاحقاً.

انتقل نشاط "الورشة" إلى مقر "الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية"، وسط القاهرة؛ وبعد بضعة أسابيع، استضافنا الصديق أحمد صلاح الملا، الدكتور لاحقاً، في منزل جده بحمامات القبة. واستمرت الضيافة، نحو ستة أسابيع، قبل أن توافق النسبة الأكبر من أعضاء الورشة على الانتقال إلى منزلي، وقد كان.

في هذه الأثناء، وصل عدد الدارسين إلى نحو خمسة وعشرين دارساً، بعد أن تسرَّب نحو ستة، من الدارسين الإثنيْ عشر، الأوائل.

وفي نيسان/ أبريل 1996، غادرت إلى دمشق، لتصفية أوضاعي هناك، وعدت في 1996/5/22. وبمجرد عودتي إلى القاهرة دبَّت الحياة في "الورشة" من جديد؛ واستمر مقرها في منزلنا، حتى صيف سنة 2000، حين دعاني بعض الأصدقاء للانضمام إلى "الملتقى العربي لمواجهة الصهيونية"، الذي كان تأسس لتوِّه وانتظم في الاجتماع مرة كل أسبوع في مقر "حزب مصر الفتاة"، وسط القاهرة. وبعد حين، اقترحت على الدارسين انتقال مقر الورشة إلى مقر هذا الحزب، بعد كل ما وجدته من ود وبساطة رئيسه عبد الحكم جميل، والأمين العام للحزب المهندس أحمد سنبل، رحمهما الله. واستمرت "الورشة" تمارس لقاءاتها الأسبوعية في "مصر الفتاة".

اقترحتُ منح "الورشة" اسماً؛ فطرحت الدارسة آمال الخزامي اسم "ورشة عبد القادر ياسين"، واقترحتُ في مواجهة هذا الاقتراح، اسم "ورشة التحرير"؛ وعند التصويت نال مقترحي أغلبية الأصوات.

حين اندلعت موجة 2011/12/25 في مصر، توقفت "الورشة" عن العمل؛ خصوصاً وقد التزمت منزلنا، بمجرد أن علمت بأن أجهزة أمنية تحاول إلقاء القبض على عرب وأجانب، ويُفضل أن يكونوا فلسطينيين، لاتهامهم بأنهم من حرَّض الجماهير المصرية "البريئة" على هذه الموجة الثورية!

لم يثبت موقع "الورشة" بعد تلك الموجة؛ فمن "مركز النيل" إلى مقر "التحالف الاشتراكي"، ثم "حزب العيش والحرية"، قبل أن يحط الرحال بالورشة في "التجمع شرق" في حي الزيتون، إلى أن عاد مقر الورشة إلى منزلي من جديد؛ بعد أن توفي عبد الحكم جميل وتنقّل "التحالف الاشتراكي" من مقر إلى آخر؛

وبعد الإحباطات المتوالية التي استبدت بالناس، واهتزاز اليقين لدى نسبة غير قليلة منهم، ما هبط بمنسوب المترددين على الورشة.

مسيرة الورشة في مصر:

اختلفت طبيعة عضوية "الورشة" في مصر عنها في سورية من أوجه عدة؛ ففي سورية اقتصرت العضوية على السوريين والفلسطينيين بنسبة الثلث إلى الثلثيْن على التوالي، وندر أن انضم إلى "الورشة" في مخيم اليرموك بدمشق أي عضو في فصيل فلسطيني؛ ذلك أن أعضاء الفصائل يشعرون بأنهم قد تحققوا وأنهم في غير حاجة إلى دخل مالي، حيث تكفيهم "المخصصات" التي تصرفها لهم فصائلهم في هذا الصدد؛ ناهيك عن الكسل الفكري، الذي يستبد بنسبة كبيرة من أعضاء الفصائل والأحزاب، حيث تكتفي تلك النسبة بما تقدمه لها قياداتها من مطبوعات!

في مصر، غلبت على عضوية الورشة الجنسية المصرية، التي احتلت نحو أربعة أخماس مجموع الدارسين، مقابل أقل من خُمسهم من الفلسطينيين، بينما التحق بالورشة ليبي واحد وثلاثة سودانيين. وكان أغلب المنتسبين للورشة هنا من مشارب فكرية – سياسية مختلفة؛ فبينهم الإسلامي والقومي واليساري، بالإضافة إلى المستقل تماماً عن كل هذه المشارب. كما تميَّزت ورشة القاهرة عن ورشة دمشق بوجود نسبة غير قليلة في ورشة القاهرة من طلاب الجامعات، الذين يُعدون أطروحات ماجستير أو دكتوراه؛ الأمر الذي افتقرت إليه ورشة دمشق.

في خندق "ورشة التحرير"، تمّ التقارب المطرد بين أصحاب تلك المشارب، بعد أن تشاركوا في عمل مجدٍ واحد، واكتشف المنتسبون إلى كل مشرب بأن ما كان يُروَّج عن المشارب الأخرى بعيد عن الحقيقة؛ فتحوَّلت بذلك، "ورشة التحرير" إلى مؤسسة جبهوية تلقائياً تعزَّزت بالديموقراطية الرحبة في العلاقات بين الدارسين وبعضهم بعضاً، وبعلاقاتهم مع المشرف على "الورشة"؛ لذا، لم يكن غريباً أن يسود الحوار

الديموقراطي بين الجميع، أخذاً بما قاله الإمام الشافعي رضي الله عنه: "رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأيك خطأ يحتمل الصواب"، ثم عزَّز الشافعي قوله هذا، بموقف تحدث عنه يونس الصدفي، فقال: "ما رأيتُ أعقل من الشافعي. ناظرته، يوماً، في مسألة، ثم افترقنا. ولقيني، فأخذ بيدي، ثم قال: (يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخواناً، وإن لم نتفق في مسألة؟!)".

كان طبيعياً أن ينأى الدارسون بأنفسهم عن جلسات النميمة، وما كان لهذه الجلسات أن تجد طريقها إليهم. ذلك أن النسبة الغالبة من الدارسين كانت غارقة، حتى آذانها، في البحث عن المصادر والمراجع والوثائق بما يفيد ما يكتبون؛ وإذا حدث وعثر أحدهم على مرجع أو مجرد مقتطف من مرجع يخص أحد الدارسين، فإن الأول يسارع إلى لفت نظر الثاني إلى هذا المرجع، أو يأتي له بالمقتطف.

هذا النظام، جعل من "الورشة" قوة طاردة، لمن لم يستسغِ الانضباط التام بالمواعيد والوعود، ومن لم يجد مرتعاً للنميمة أو التسلية أو تزجية الفراغ. وبذلك، كان عامل التصفية ذاتياً في الورشة، ما جنبنا اتخاذ قرارات بإلغاء مقعد أي دارس.

استجدت بين غالبية الدارسين علاقات إنسانية ودية، تجلَّت، أكثر ما تجلَّت، حين داهم مترو، قرب كلية بنات عين شمس، في 2003/5/27، إحدى الدارسات.[4] وهنا، أُضيفت إلى جموع الدارسين الدكتورة ريما حسني الخفَّش، الطبيبة في مستشفى فلسطين، التي لم تألُ جهداً في هذا المضمار. ومع خروج الدارسة من المستشفى، سارعت الدكتورة الخفَّش بالانضمام إلى "ورشة التحرير".

عرضت ثلاث صبايا استعدادهن للمبيت كمرافقات مع الدارسة المصابة؛ ووقع اختيار الأخيرة على الدارسة نظيمة سعد الدين، واحتُفظ بآمال الخزامي وأكابر سيد محمد "لوقت عوزة"!

[4] يومها، كنت في زيارة لابنتي رضوى في حي الهرم، وفاجأتني بمجرد وصولي، بتوجيه الاتهام لي بأنني "نكدت" على والدتها، قبل مغادرتي المنزل. أردفت رضوى: "أحياناً بتفلت منك كلمة تعكِّر المية الصافية". فسألتها عن سبب توجيه اتهامها هذا لي، ردت بأن والدتها هاتفتها، لكن موجة من البكاء داهمت الوالدة، فأقفلت الهاتف. وكانت التهمة لي هنا، بدون بيِّنة، أو حتى قرينة! فاتصلتُ، هاتفياً بزوجتي، التي ردت: "فلانة داهمها المترو، يا ريت كنت أنا ولا هي، لسه ما شبعتش من عمرها!" غادرت منزل الابنة وتوجهتُ من فوري إلى "مستشفى فلسطين"، بحي مصر الجديدة، ففوجئت بالغالبية العظمى من الدارسين بالورشة، يتجمعون على باب غرفة، ومنهم عرفت تفاصيل الحادث.

واظب الدارسون على الحضور اليومي إلى المستشفى وعرض المساعدة، بينما وفرت د. الخفَّش دعماً للمصابة ذا قيمة؛ أما آمال الخزامي، فتسلَّلت، خلسة، إلى منزل الدارسة في حي إمبابة القاهري، حيث وفرت الخزامي للمصابة، في صمت، عند خروج الأخيرة من المستشفى، مسنداً لسلَّم منزلها، و"بانيو" حمام يلائم الإصابة، بالإضافة إلى مكتب. ولم نكتشف هذا كله إلا لاحقاً، وبالصدفة البحتة!

هنا، فوجئت بأنني أمام علاقات بين الدارسين تفوق في تلك التي تقوم بين أعضاء حزب سري.

دون أن أُغفل، في السياق نفسه، بأن زيجتيْن تمتا في ورشة سورية، مقابل أربع زيجات في ورشة مصر.

مرحلة الكتب المشتركة:

في ورشة مخيم اليرموك، واظبنا على اقتراح محاور على الصديق العزيز فاروق وادي مدير تحرير فصلية "صامد الاقتصادي"، وكان يأخذ بتلك الاقتراحات، مشكوراً؛ ودأب الدارسون في "الورشة"، بالإضافة لي، على تغطية ما بين 90–95% من مواد كل عدد من المجلة المذكورة، بالأبحاث ومراجعات الكتب والمقالات والتقارير.

أريل شارون

حين اجتاح أريل شارون Ariel Sharon بقواته الضفة الغربية، ربيع سنة 2002، وسطَّر المقاومون الفلسطينيون في مدينة جنين ألواناً من الجسارة والبطولة في مواجهة القوات الغازية، اقترحت آمال الخزامي بأن تُسرع "الورشة" بإصدار كتاب يوثّق "ملحمة جنين"، وسرعان ما صدر كتاب بهذا العنوان، حافظاً للذاكرة الوطنية الفلسطينية وقائع هذه الملحمة. وألحقناه بكتاب آخر عن صمود المقاتلين الفلسطينيين في كنيسة المهد ببيت لحم، وحمل الكتاب عنوان "كنيسة مهد المقاومة".

غدا إصدار الكتب المشتركة ضمن ملامح "ورشة التحرير"، منذئذ، حتى بلغ عدد تلك الكتب 25 كتاباً، منها اثني عشر كتاباً تستحق وصفها بالموسوعية، عدا أربع مخطوطات كتب في انتظار النشر.

يلاحظ بأننا تعاملنا مع دور نشر إسلامية ووطنية عامة ويسارية، دون أي حساسية من جانبنا أو جانب أي من دور النشر، التي اتصفت معاملتها مع "الورشة" بالصدق، ووعودها بالوفاء.[5]

عضوية بلا شروط:

الدارس، دون غيره، هو مَن يُحدِّد شروط التحاقه بالورشة؛ فهو من يختار الانضمام إليها من عدمه؛ وهو الذي يُقرِّر الاستمرار في الورشة أو قطع علاقته بها. فبعد أن يُقرِّر المعني الالتحاق بالورشة، سيكتشف بأنه لا شروط مطلقاً للالتحاق بها؛ من حيث مستوى التعليم، أو الانتماء لفكر سياسي معيَّن، أو لجنسية بعينها، أو عمر معيَّن، إلا إذا عددنا الدقة في المواعيد والوعود شروطاً للحفاظ على عضوية المعني في "الورشة". لذا، لا مبالغة في القول بأن "الورشة" غدت مؤسسة مفتوحة الذراعيْن.

بيد أن ثمَّة معايير احتفظ بها المشرف، كي يتعرّف بها على الواعدين من الدارسين، وأول هذه المعايير رغبة الدارس القوية في أن يمتلك ناصية الكتابة السياسية والأكاديمية؛ ويتمثَّل ثاني المعايير في امتلاك الدارس ناصية اللغة العربية؛ أما ثالث المعايير فيتجلى في مدى ثقافة القارئ العامة والسياسية، ويبقى رابع المعايير، وهو نتيجة للمعايير الثلاثة سالفة الذكر، ويتمثل في التزام الدارس بالمواعيد والوعود.

بالفراسة، يستطيع المشرف معرفة مدى جديّة الدارس الجديد، وبمدى حماسه، والتزامه.

أما بعد انخراط الدارس في الورشة، فيتم الحكم على عمله وفق معايير السرعة والدقة والإتقان.

أضفتُ، بعد انتقال الورشة إلى القاهرة، تحريم استخدام كلمة "معلِش"، في تبرير الأخطاء، أو التقصيرات، تحريماً تاماً. ذلك أن هذه الكلمة هي في الأصل: "ما عليه شيء"؛ أي أن المخطىء يبرىء نفسه، ويدين من ضبطه متلبساً!

---

[5] دار الكلمة، ومركز الإعلام العربي، وجزيرة الورد، والشروق الدولية (القاهرة). باحث ودار الفرات (بيروت). دار التقدم العربي والدار الوطنية الجديدة (دمشق). دار الكتاب العربي (دمشق – القاهرة). مركز المجروسة ودار المحروسة.

مواد الدراسة:

يتلقى الدارس الجديد وزملاؤه في كل جلسة أسبوعية للورشة، محاضرة يُلقيها المشرف على الملتحقين حديثاً بالورشة، وتنحصر هذه المحاضرة في أهم الأجناس الصحفية؛ المقال السياسي، والتعليق، والافتتاحية، والبحث الأكاديمي، وانتهاءً بمراجعة الكتب.

ذات مرة، حضرت محاضرات الورشة خريجة إعلام جامعة القاهرة، ومع انتهاء المحاضرة الرابعة، طلبت الخريجة التعليق، وقالت: "هذه المحاضرات الأربع أعطت الدارسين في الورشة كل ما أخذناه في كلية الإعلام بجامعة القاهرة، على مدى أربع سنوات!"

لم تكن الخريجة المعلِّقة تعلم بأن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد؛ فقد كان على كل دارس واجب إلقاء محاضرات في التاريخ الوطني الفلسطيني في القرن العشرين؛ بدءاً من خلفية تاريخية، عن الفترة الأخيرة من الحكم العثماني لفلسطين، الذي استمر لأكثر من أربعة قرون 1516–1918، خلفية تُضفِّر الاقتصادي بالاجتماعي، وصولاً إلى ارتدادهما السياسي؛ وبعدها تأتي المرحلة الأولى من الحركة الوطنية الفلسطينية تحت الاحتلال البريطاني 1918–1929؛ فالمرحلة الثانية 1930–1939؛ فالثالثة 1940–1948؛

أما الحرب العربية – الإسرائيلية الأولى سنة 1948، والنكبة التي تمخضت عنها، فقد احتلت موقع المحاضرة الخامسة؛ واستمر التأثير السلبي للنكبة في تقوُّض شتى البنى الفلسطينية، والاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية (عدا الحزب اليساري، وجماعة "الإخوان" الإسلامية)، والثقافية، والنقابية؛ فغدت هذه الحقبة المحاضرة السادسة؛ وبعدها، أخذ الاقتصاد العربي الفلسطيني يتعافى ومعه البنية الاجتماعية وارتدادها السياسي؛ وهنا، تسارعت الخُطى لإحياء الكيان السياسي الفلسطيني، الأمر الذي أنتج الفصائل الفدائية الفلسطينية، ثم "منظمة التحرير الفلسطينية" 1959–1964، موضوع المحاضرة السابعة؛ دون أن ننسى أبناء شعبنا الصامدين في

فلسطين الـ 48، فكانوا مادة المحاضرة الثامنة 1948–1964؛ ثم كانت حرب 1967، والهزيمة التي لحقت بالعرب، بينما استكملت "إسرائيل" احتلال بقية فلسطين، بالإضافة إلى شبه جزيرة سيناء المصرية والجولان السورية؛ ما دشَّن مرحلة جديدة 1967–1971، تعملقت فيها المقاومة الفلسطينية المسلحة، ثم انتكست، ما جعل من تلك الحقبة موضوع المحاضرة التاسعة؛ لكن لا مفر من رصد حصيلة المسيرة 1964–1991، في المحاضرة العاشرة؛ تلتها المحاضرة الحادية عشرة، حول "كامب ديفيد Camp David" وتداعياتها؛ فالمحاضرة الثانية عشرة، عن الانتفاضة الفلسطينية 1987–1991، ثم اغتيالها؛ أما المحاضرة الثالثة عشر، فتخصصت في "اتفاق أوسلو Oslo Accords" وتداعياته الكارثية بقيت المحاضرة الأخيرة، التي لم تتركنا نجتر أحزاننا، بل قدمت ما رأته البديل.

لقد جاء الإلمام بالخطوط العريضة للحركة الوطنية الفلسطينية؛ ثمرة للضرورة، ذلك أن دارسي الورشة يكتبون في القضية الفلسطينية، لمجلة فلسطينية أساساً، "صامد الاقتصادي". وقد ضمّ هذه الخطوط العريضة كراس في حدود 90 صفحة، من القطع الصغير، مع أهم المراجع لمن أراد الاستزادة. وصدر الكراس عن "دار الكلمة"، بالقاهرة سنة 2000. وقد تحمَّس للكراس مدير الدار، الصديق العزيز محمد غنيم؛ قبل أن ينشر الكراس الثاني للورشة سنة 2002، الذي حمل عنوان "من تحت الصفر إلى الثورة"؛ وتضمن الكراس مواد، يجب على كل دارس أن يلقيها على زملائه، الذين يناقشونه في المادة وفي طريقة الإلقاء، ما يُجهّز الدارس لدورِ المحاضر.

أما مواد الكراس، فهي بمثابة مفاتيح للكتابة السياسية والعمل السياسي، في آن واحد. وقد قدَّم للكراس المفكر التقدمي المصري المرموق، الصديق العزيز عبد الغفار شكر. بينما أهديت الكراس "إلى روح محمد خليل قاسم، قدوة، في الكفاح، والتضحية، والتواضع، والغيرية".

تضمَّن الكراس نصوص ثلاث عشر محاضرة مكثَّفة، كل منها في "كبسولة"، وتوزَّعت على النحو التالي: الحزب السياسي، ولمحة عن الفلسفة، وفي الاقتصاد السياسي، والصراع الطبقي، والثورة، والاستراتيجية والتكتيك، وأساليب النضال، وحرب الشعب، والوحدة العربية، والصهيونية، ومدخل إلى قضية المرأة، وفي التحالف، وأخيراً معضلة الديموقراطية في الدولة الفلسطينية المنتظرة. وأُلحق الكراس بمجموعة مراجع عن كل موضوع، على حدة.

⇦ محاضرون من خارج الورشة:

- 1. عبد الغفار شكر: تجديد الحركة التقدمية المصرية في 2002/1/2.
- 2. عوض عبد الفتاح: عرب 48 في 2002/1/3.
- 3. عبد الخالق فاروق: كيفية دراسة البناء الطبقي في 2002/2/6.
- 4. أحمد بهاء الدين شعبان: العولمة في 2002/2/20.
- 5. ليلى الجبالي: العولمة في 2002/3/6.
- 6. د. عبير سلامة: مدنرس الأدب في 2002/4/3.
- 7. يوسف القعيد: الكتابة في الزمن الصعب في 2002/4/24.
- 8. مناقشة كتاب أحمد صلاح الملا "مصر والعروبة: إرادة الوعي وإشكالية الهوية"، وحضر د. محمد عبد الشفيع عيسى في 2002/6/26.
- 9. مناقشة كتاب عبد القادر ياسين "من تحت الصفر إلى الثورة"، ناقشه من خارج الورشة: د. محمد مورو ومحمد فرج في 2002/7/24.
- 10. محمد جلال عناية: الفكر السياسي الفلسطيني في 2002/12/8.
- 11. تقييم الدارسين لسير الورشة في 2002/12/15.
- 12. فريدة النقاش: الهوية.
- 13. شوقي جلال، فن الترجمة.
- 14. د. فخري لبيب: العمل الجماهيري للحزب.
- 15. د. أنور مغيث: ضرورة الفلسفة للباحث.
- 16. د. كمال مغيث: مناهج البحث.
- 17. محمد عصمت سيف الدولة: كامب ديفيد.
- 18. وائل خليل: مناهضة العولمة.

المحصِّلة: ماذا بقي منها للتاريخ؟!:

جاءت نتائج ثلاثين عاماً من حياة "ورشة التحرير" مُخيِّبة لظني!، ذلك أنني إنما هدفت منذ البداية، إلى مجرد تدريب ما لا يزيد عن خمسة شباب من المتلهفين لكي يصبحوا باحثين؛ وهذا كل ما في الأمر؛ وإن كانت زمام الأمور سرعان ما أفلتت من يدي، وانتقلت إلى أيدي الدارسين، الذين تحكّموا في أداء الورشة وخط سيرها؛ وانحصرتُ أنا في دور "المايسترو".

لم يدر بخلدي أن أستمر في إدارة الورشة كل هذه السنوات، وأن يفد إليها نحو خمسمئة شاب على مدى ثلاثين سنة؛ من الجنسيْن ومن أقطار عربية شتى وأعمار مختلفة، ومشارب فكرية وسياسية متعارضة ومستويات تعليم متفاوتة. وأن ينجح أكثر من ربع ذاك العدد في كتابة الأبحاث ونشرها في مجلات محكَّمة، بينما شارك 70 من مجموع الدارسين في تأليف 25 كتاباً مشتركاً، منهم خمسة، فقط، من سورية، وشارك 32 آخرين من خارج الورشة؛ كما أفلح 18 دارساً في نشر كلّ منهم كتباً خاصة به. وتولى أربعة من الدارسين رئاسة تحرير صحف.[6]

ناهيك عن قيام علاقات حميمة، ما كان لها أن تقوم بين أصحاب المشارب الفكرية والسياسية المختلفة من الدارسين، لولا الكفاح الثقافي المشترك في خندق "ورشة التحرير".

أذكر أن الصديق المفكر التقدمي المصري المرموق، عبد الغفار شكر، ألقى محاضرة في الورشة مطلع سنة 2001، عن "وحدة القوى التقدمية"، وما إن انتهى من إلقاء محاضرته، حتى أخذ الدارسون دورهم في مناقشة المحاضر.

جاءت المفاجأة الأولى، حين حيَّا الإسلاميون والقوميون المحاضر على محاضرته؛ بينما تولاه الدارسون اليساريون بالمناقشة والاختلاف! أما المفاجأة الثانية، فتمثلت في البحث الذي قرأته الدارسة، المهندسة معالي أحمد عصمت، وحمل عنوان "سلبيات التعبير الديني عن الانتفاضة"، التي تلقت عليها الدارسة ملاحظات زملائها الدارسين. وما أن انتهوا من تقديم ملاحظاتهم، حتى انتقل الدور إلى المحاضر الرئيسي،

---

[6] الأربعة هم: اللواء حسن أبو لبدة (المجلة العسكرية الفلسطينية)، وعماد سيد أحمد (السياسي)، وناصر حجازي (موقع "الشاهد" الالكتروني)، وفاطمة خير، ("العرضحالجي"، و"دريم نيوز"، و"التقنية اليوم").

الذي بدأ في التعقيب على الدارسة، قائلاً: "لو أن أحزابنا فعلت ما فعله عبد القادر، لأصبح عندنا أحزاب!" وتكتسب هذه الجملة أهميتها من كون قائلها هو من تولى التثقيف السياسي، على مدى نحو 40 عاماً، في كل من "منظمة الشباب الاشتراكي"، 1965–1969، ورئيساً للجنة الفنية في اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي، 1969–1971، ومسؤولاً أولاً عن التثقيف السياسي في "حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي". ثم انتقل شكر للرد على ملاحظات الدارسين على محاضرته.

أما الصديق المهندس محمد عصمت سيف الدولة، فقد التقى، ذات يوم، بمجموعة شباب، أخذ يناقشهم، وفجأة سألهم: "هل أنتم من الورشة؟!"، ردوا بالإيجاب، وأردفوا يسألونه كيف توصَّل إلى ذلك؟!، فقال لهم: "تردون بإيجاز، ودون حشو؛ ولا تقاطعون المتحدث، حتى لو كنتم تعارضونه فيما يقول".

بينما كان للدارسين رأي آخر، حيث قالت الدارسة رغدة عمورة، في دمشق سنة 1995: "بعد كل ما تلقيناه، وحاضرنا فيه، لو لم نتمكن من الكتابة، فسنتمكن من القراءة الصحيحة، على الأقل؛ وهذا، في حد ذاته، يكفي". بعدها بنحو سنتين، قالت الدارسة فاطمة خير، في القاهرة: "هذه المحاضرات، التي تلقيناها، وتلك التي ألقيناها، نقلت تأييدنا للقضية الفلسطينية، من المجال العاطفي، إلى دائرة الوعي". وقامت علاقة حميمة بين زوجتي، رحمها الله، وبين صبايا الورشة، حتى أن إحداهن، وهي د. إكرام عبد الرحيم، أدت فريضة الحج عنها سنة 2018، حين كانت عبد الرحيم تُدرِّس في جامعة تبوك بالسعودية.

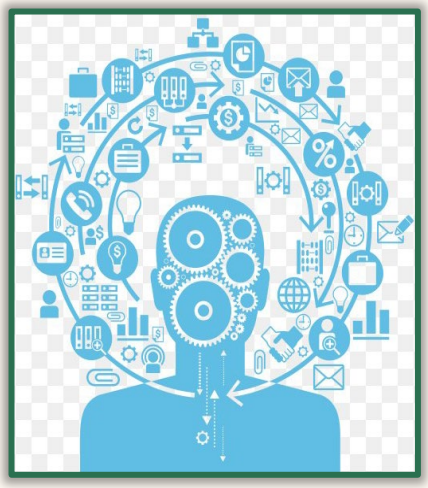

لقد تمّ الاستثمار هنا في الأنبل: الإنسان والثقافة؛ ولأن الثقافة والديموقراطية صنوان، فقد تمّ التشبث بالديموقراطية، أبداً، وإلا لما كانت هذه النتائج؛ فالدارسون تسيَّسوا وتثقفوا بالمنهج العلمي للتفكير، بالإضافة إلى امتلاكهم مهارة البحث الأكاديمي والكتابة السياسية؛ ناهيك عن البهجة التي لطالما أشاعتها "الورشة" في نفوس الدارسين. زد على ذلك، بأن ثمَّة علاج نفسي قامت به

الورشة لمن ضاقت به السبُل. وفي هذا الصدد، أكتفي بذكر حالتيْن، أولاهما خاصة بابنتي، آخر العنقود "رضوى".[7]

---

[7] التي أخذ الحزن يتسلل إليها، غُداة زواجها. وحين سألتها، صارحتني بأنها اختلفت مع زوجها، لأنه لا يرى ضرورة في اشتغالها بالتدريس، لتواضع الراتب، بما لا يكفي الملابس، والمواصلات، عدا سلوك طلبة المدارس الخاصة، حيث تريد أن تعمل؛ وهذا كله سيكون على حساب بيتها، وأولادها. بينما رأت رضوى، محقَّة، بأن ولعها بالتعليم جعلها تختار كلية التربية – قسم الرياضيات؛ بينما كان مجموع درجاتها في الثانوية العامة عالياً، بما يؤهلها للالتحاق بكلية الهندسة؛ وأنها حرمت نفسها من مباهج الحياة، في أثناء الدراسة، الثانوية والجامعية؛ وحرصت، دوماً، على أن تحوز المركز الأول، كل ذلك ليس من أجل أن تُرابط في البيت، تكنس، وتمسح، وتجلي الصحون! رددتُ عليها، بأنها وزوجها على حق، في آن معاً. ومع تسليمها بمنطق زوجها، بقي عليّ أن أتناول منطقها هي. هنا، اقترحتُ عليها أن تُشاركنا في "الورشة"، فنبَّهتني إلى أنها خريجة رياضيات، وليس الآداب؛ رددتُ عليها: "بالعكس الرياضيات أقرب، في منهجها، إلى الدراسة والبحث، من الآداب." لم تُحرِ جواباً، وأظهرت اقتناعاً، على مضض؛ فضربتُ الحديد وهو ساخن، وألقيت عليها محاضرة "البحث الأكاديمي"، ولم يستغرق هذا الأمر سوى أقل من عشر دقائق. وأوكلتُ إليها كتابة دراسة، أعادتها لي، بعد أسبوعيْن، حسب الاتفاق؛ وعندما راجعتُ الدراسة، اكتفيتُ باستبدال كلمة واحدة بمرادف لها. وحين رأت اقتناعي بالدراسة، استبعدت أن تكون أنجزت دراسة في مستوى النشر، واتهمتني بأنني أُحابيها لأنها ابنتي، رددتُ عليها بأن المجلة هي الفيْصل، خصوصاً وأن ثمَّة دارستيْن ينتهي اسميهما بـ"عبدالقادر"، مثلها، هما هالة عبد القادر، وإيمان عبد القادر، بحيث لا تُجاملني المجلة، عبر تمريرها دراستك. حين نشرت "صامد الاقتصادي" الدراسة، ألحَّت رضوى بطلب تكليف آخر؛ وهكذا، واظبت رضوى على الكتابة المنتظمة لصامد الاقتصادي، على مدى نحو 15 عاماً، 1998–2013، علماً بأنها كانت تتقاضى عن كل دراسة مئة دولار أمريكي.

ذات يوم، عدت إلى البيت، فواجهتني زوجتي، رحمها الله، بقولها: "أنت مكار، تفعل كل ما هو مطلوب من أي رجل يحال إلى التقاعد؛ حسب ما قال عالم نفس، في برنامج في التليفزيون؛ حيث تصحو مبكراً، تغسل وجهك، وتحلق ذقنك، وتنزل إلى الشارع، لمجرد شراء جريدة، أو حزمة فجل، تجدد أصدقاءك؛ بعد أن انقطعت علاقاتك بزملائك في الوظيفة؛ على أن الأهم من هذا كله، أنك ابتكرت قضية، وتصورت بأنها لن تنجح إلا بوجودك! "

هنا اكتشفت أم جميل الفائدة التي تعود عليَّ، من استمراري في الاشراف على "ورشة التحرير"، بعد أن كنت اضطررت إلى تقديم استقالتي من وظيفتي الحكومية في كانون الثاني/ يناير 1984، وأنا في السادسة والأربعين من عمري.

هذا كله، بينما تمثلت في عملي هذا قول المفكر الديومقراطي اليمني، عبد الله البردوني، الذي أكد بأن لا قيمة لثقافتك، إذا لم تُغيّرك، وإذا لم تُوظفها أنت في تغير من حولك.

لقد جاءت هذه الورشة، في وقت تفشى التمويل الأجنبي، وبائياً، بينما حرصت هذه الورشة على صيغة العمل التطوعي التي أصبحت في خبر كان، في بلادنا، منذ أمد.

خلال سني حياتي، نشطت في عمل سياسي سري، وفي الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، أما في الورشة فكان العمل الأهم؛ وكأنني خلقت لهذا الدور.

والحالة الثانية هي لصبية من السودان توفي والدها قبل تقديمها أطروحة الماجستير بنحو ثلاثة أشهر، وبينما توفيت والدتها بعد نحو ثلاثة أشهر من هذا التقديم، ما جعل الصبية المعنية تُصرّ على عدم تقديم أطروحة الدكتوراه، حتى لا تفقد بقية أفراد عائلتها!

أقنعتها دارسة فلسطينية بأهمية مشاركتها في نشاط "الورشة"، فقبلت، بعد طول تردد؛ وما أن ألممتُ بحالتها، حتى كلفتها بكتابة موضوع تسلمه لي بعد أسبوع واحد في حدود عشر صفحات؛ وحين سلمتني إياه ووجدت بأنه في مستوى النشر، طلبت إليها كتابة موضوع آخر تسلمه بعد أسبوع واحد؛ وكررتُ الأمر لثالث مرة، ثم باركتُ لها إنجازها الفصل الأول من أطروحة الدكتوراه الخاصة بها! وأقنعتها بعدم واقعية تفكيرها بالنسبة للموت، فالوالديْن كانا سينتقلان إلى رحمة الله، بدون واسطة الماجستير!